الغرافيتي بين
مفترق طقوس العبور والتعبير الفني

الباحثة لمياء هريشي
الجمهورية التونسية

ملخص:

فتح التغيّر الاجتماعي، الذي عرفه المجتمع التونسي، الممرّ لتشكّل ممارسة الغرافيتي بعد أن اكتسب الشارع رمزية أخرى، يمكننا اليوم أن نرى التعايش في الفضاء الحضري من خلال الغرافيتي الذي أصبح عنصرا من العناصر التي تؤثّث الشارع وأشكال التعبير والتواصل التي يخلق من خلالها هؤلاء اليافعون تنظيما بديلا مجسدا لتصور جديد لمدينته منغرسا في عمق الصراع الاجتماعي ومتحررا من القيود التقليدية معيدا صناعة شوارع مدينته وتأثيثها. ويصبح بالتالي الشارع محددا اجتماعيا ضمن عملية تنشئة الأفراد.

اعتمادا على بحث ميداني في تونس العاصمة، يعمل هذا البحث الى النفاذ إلى عالم المراهقين وفهمه من خلال ممارسة الغرافيتي والولوج إلى الجوانب الخفية لهذه الممارسة التي تعكس من ناحية تفاعل هذه الفئة مع واقعها المحلي والعالمي ومن ناحية أخرى تموقعها بين مفترق طقوس العبور والتعبير الفني. وذلك عبر تمش منهجي كيفي يرجع مهمة الباحث الى مساهمته في فهم العلاقات والتفاعلات الاجتماعية.

الكلمات المفاتيح: المراهق – الغرافيتي – طقوس العبور

Abstract:

The social change that the Tunisian society has recently known has paved the way for the development of the practice of graffiti. As the Tunisian street has acquired a symbolic dimension, we started to Witness an emergent coexistence of different social backgrounds in the urban space. This goes back to the colorful and diverse artistic expressions that graffiti channeled and made visible to the public in streets. In fact, graffiti has become a defining feature of streets and an outlet for expressing oneself and connecting with others. It represents an alternative way to overcome social struggles and break free from traditions to embrace new conceptualisations of the freedom of speech. In this way, the street undertakes a crucial role in the process of regenerating the society Based on field research in the city of Tunis, this study seeks to delve into the world of teenagers to investigate their use of graffiti to respond to both local and global realities on the one hand, and to grasp the use of graffiti as an artistic means of of crossing social boundaries. This study employé a qualitative methodolgy that helps understanding the dynamics of social interractions and relations

Keywords: teenager – graffiti – rites of passage

مقدمة عامة:

في السياق الحالي للعولمة ومجتمع الشبكات... الذي نعيش فيه حيث يتحول فيه الخصوصي إلى كوني، ساهم بدوره في التأثير في طرق عيش المراهق وأساليب تفكيره وممارساته. ليخترعوا لأنفسهم رموزاً جديدة في اللغة والمظهر، ورموزاً ثقافية واجتماعية، يتم إضفاء الطابع الرسمي عليها بطريقتهم من خلال انتمائهم إلى ثقافة الهيب هوب، واستنادهم إلى مراجعها وطقوسها، والتي مثلت لغة وطريقة عيش وحالة ذهنية وعلامات اعتراف وشعورا بالانتماء. فعبرت بدورها عن حركة ثقافية وفنية ولدت في نيويورك في بداية السبعينيات وارتبطت بها ممارسات مختلفة مثل الغرافيتي والراب وعروض الدي جي والبريك دانص.

هذه الممارسات، تفاعلت مع الحركية المجتمعية وعبّرت بدورها عن ديناميكية اجتماعية ورابطة تفاعلية جديدة تعلن عن واقع اجتماعي جديد دافع لقيم تحررية وديمقراطية قادرة على التعبير عن عالم اجتماعي يقطع من خلاله المراهقون مع الممارسات والفضاءات التواصلية السائدة لإنتاج لغة جديدة للتعبير عن ذواتهم وبحثا عن الاعتراف والتقدير. يعمل هذا البحث على النفاذ إلى عالم المراهقين من خلال ممارسة الغرافيتي والولوج إلى الجوانب الخفية لهذه الممارسة التي تعكس من ناحية تفاعل هذه الفئة مع واقعها المحلي والعالمي ومن ناحية أخرى تموقعها بين مفترق طقوس العبور والتعبير الفني.

فتح التغيّر الاجتماعي، الذي عرفه المجتمع التونسي، الممرّ لتشكّل هذه الممارسة التعبيرية المستجدة. بعد أن اكتسب الشارع رمزية أخرى، يمكننا اليوم أن نرى التعايش في الفضاء الحضري من خلال الغرافيتي الذي أصبح عنصرا من العناصر التي تؤثّث الشارع وأشكال التعبير والتواصل التي يخلق من خلالها هؤلاء اليافعون تنظيما بديلا مجسدا لتصور جديد لمدينته منغرسا في عمق الصراع الاجتماعي ومتحررا من القيود التقليدية معيدا صناعة شوارع مدينته وتأثيثها. وبالتالي أصبح الشارع محددا اجتماعيا ضمن عملية تنشئة الأفراد.

تمثل في الواقع، مجموعات الغرافيتي نتيجة لشبكة من العلاقات التي يتبادل خلالها مجموعة من الرموز والمعاني. تمثل بالنسبة إليهم عالمهم الاجتماعي كيف يتفاعلون فيما بينهم، إشاراتهم، رموزهم، شفراتهم. هذه القواعد النحوية يبنون من خلالها هويتهم الجماعية ويميزون بها مجموعاتهم حيث يبنون عالمهم الاجتماعي من خلال المعاني التي يخصون بها الأشياء والأفراد والرموز التي تحيط بهم. إننا إزاء ذات فاعلة تمارس وتستثمر قدراتها في الفعل والحركة على الجدران لتعبر عن ذاتها وتتموقع بين التفرد والانتماء.

إنّ علاقة اليافع بالشارع هي علاقة إشكالية، إذ عادة ما يرتبطان بتصور اجتماعي يعتبر اليافع الشارع هامشيا وخطيرا. ويرتبط الغرافيتي بالشارع ويستوعبه ليصبح من خلاله فضاء للعبور. ويمتاز ممارسو الغرافيتي بالحركة الدائمة والتنقل بين الفضاءات المختلفة هروبا من الرقابة الاجتماعية. فيكون بذلك الشارع بالنسبة إليهم فضاء المشاعر الحيّة التي تحدثها هذه الألوان والرسومات والكتابات في زوايا الجدران.

من منطلق، أنّ الغرافيتي عالم اجتماعي ينتج عبره المراهقون تعبيرات هوياتية ويعاد فيه تعريف الرابطة الاجتماعية في الشارع. سنحاول فهم كيف يتحول الشارع الى محدد ضمن عملية التنشئة الاجتماعية وفضاء لبناء الهويات الفردية والجماعية؟

المدخل النظري والمنهجي:

المراهق والغرافيتي عنوان يكشف بدوره عن مفهومين أساسيين "المراهق" و"الغرافيتي" وما يحمله الأول من شك وريبة في مجتمع مركب، يجعله دائما في حالة تأرجح بحثا عن الاعتراف. وما يتضمنه الثاني من خصوصية في النص والفضاء، التي تجعلنا نبحث في خصوصيتها ومعانيها.

ومن هذا المنطلق، نحاول أن نبلور رؤية وتمثلا سوسيولوجيا لعالم الغرافيتي لدى مجموعات المراهقين، التي اتخذت منه فعل عبور للفضاء الخارجي ومقاومة للنظم التقليدية وشكلا من أشكال إعادة الاعتراف وإعادة بناء الروابط الاجتماعية. وهو ما يجعلنا مندرجين ضمن تمش منهجي تفهمي يرجع مهمة الباحث الى مساهمته في فهم العلاقات والتفاعلات الاجتماعية. هذه الإستراتيجية البحثية تضعنا أمام خيار منهجي كيفي يفضل وضعًا ديناميكيًا وعمليًا تحدده الرغبة في تسليط الضوء على الفعل بما هو ممارسة وتجربة اجتماعية، مدفوعة بالرغبة في التعامل مع الفاعلين كعناصر فاعلة في الميدان وبالرغبة في فهم المعنى الذي يعطيه هؤلاء لأفعالهم أثناء قيامهم بالفعل.

اندرج هذا البحث ضمن بحث ميداني في مجال جغرافي " تونس العاصمة" انطلق منذ سنة 2016 إلى حدود سنة 2019 في إطار بحثنا في أطروحة الدكتوراه تحت عنوان " **الممارسة التعبيرية الشبابية: الغرافيتي مثالا**"[1]. حيث انطلقنا من مجموعة من النتائج المتحصل عليها آنذاك ودعمنا ذلك ببحث ميداني في نفس المجال الجغرافي مواصلة لما سبق، محاولين في ذلك من ناحية أولى، البحث في مستجدات حقل الغرافيتي في الفضاء العمومي. ومن ناحية ثانية، التركيز على اليافعين وما يتضمنه هذا الفاعل من خصوصية. وهو ما جعلنا في علاقة مباشرة مع المبحوثين. باعتمادنا على تقنية المقابلة شبه الموجهة وغير الموجهة مع 12 مبحوث ممارس للغرافيتي. كان اتصالنا في بداية البحث مع الميدان "غير شكلي" من خلال التعرف على المبحوثين عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي، ثم مقابلتهم ميدانيا والتحدث معهم بصفة عامة، وهو ما مكننا في مرحلة ثانية من اعداد دليل المقابلة شبة الموجهة بناء على المعطيات التي جمعناها خلال المرحلة الاستكشافية وكان تقسيمها على قسمين أساسيين: تمثل المراهق للغرافيتي واخر تمثل المراهق للشارع. باللهجة التونسية المحلية، وأجرينا 12 مقابلة شبه موجهة مع شبان تتراوح أعمارهم بين 15 و20 سنة يشتركون في نفس الميدان، كما اعتمدنا على الملاحظة بالمشاركة من خلال المكوث ساعات طويلة مع هؤلاء الشباب في أماكن تواجدهم، وتركزت ملاحظتنا على ممارستهم في الفضاء ومظهرهم الخارجي وطرق تواصلهم فيما بينهم. امتدت هذه التجربة البحثية الميدانية لمدة ثلاث أشهر بين ملاحظة ومقابلات بمراحلها المختلفة، امتدت من جانفي، فيفري ومارس 2023.

I. الغرافيتي عالم المراهقين:

يعدّ الغرافيتي مصطلحا عاما يشير إلى ممارستين تكميليتين: العلامة أو الامضاء وتعرف أيضا بـ " التاغ" (سنعتمد في هذه الدراسة تسمية علامة أو إمضاء). والكتابة أو الرسم على الجدران وتسمى (the pièce). وهو ما يعرف بالغرافيتي الحديث أو المعاصر أو غرافيتي الهيب هوب. عموما هو شكل رسومي يعتمد على الطباعة أو تشكيل الحروف أو الرسوم عن طريق استعمال بخاخ. يمكن أن يعرِّف الشباب الممارس للغرافيتي أنفسهم من خلال طبع إمضائهم أو لصقه على الجدران أو تدوينه مباشرة على الجدار وفي وسائل النقل والشاحنات الكبرى والسكك الحديدية وغيرها من المحامل المختلفة داخل المدينة. سننطلق هنا من دراستين الأولى لفيديريك كالو (Calo Federico)[2] أين ركز على مفهوم التشبيك في الغرافيتي، من خلال التفاعلات بين الممارسين فيما بينهم وبين المجموعات من خلال ممارساتهم وعاداتهم، وكيفية تمكينهم، وتلقينهم لشفرات هذا العالم الاجتماعي ورموزه، وكيفية اندماجهم داخل المجموعة ومع المجموعات في نفس السياق. دراسة ثانية أيضا لكل من ماريلين فيلونو وستيفاني بيسكي(Felloneau Marie-Line et Busquets Stéphanie)، تناولا فيها موضوع الغرافيتي كفعل وممارسة مرتبطة بالحاجة إلى الاعتراف الاجتماعي. حيث ركزا ضمن مقاربة تفهمية على فهم سلوكيات المراهقين وأفعالهم، حيث سيكون الشارع الفضاء الذي يحملون رغباتهم فيه، ويظهرون قلقهم واستياءهم. أثبتت الدراسة، أن الغرافيتي حركة مراهقة وذكورية تعكس الملامح السوسيواقتصادية[3]. كما اعتبرا أنه من خلال الغرافيتي "سيختار المراهقون ابتكار لغة وملابس وقواعد ثقافية واجتماعية جديدة بأنفسهم."[4]

هذا المنظور يضعنا في صلب ممارسة حقيقية لإنتاج طقوس العبور، ممارسة تسمح لنا بالتفاوض بشكل أفضل على العبور بين لحظتين أساسيتين، ممارسة انتقالية تضمن المرور، لأنها بالأساس دعم حقيقي للهوية.

1. العلامة: بين التفرد والانتماء

استنادًا إلى دراسة فوتوغرافية بين باريس ونيويورك وساوباولو أعدّها كل من "كليمو كريزيو" و"مالو فيرلوم" (Criseo Clément et Verlomme Malou)[5]. قدمت هذه الدراسة تعريفًا حديثًا للعلامة باعتبارها تتميز عن الأشكال الأخرى للكتابة على الجدران و بأنها أقرب إلى الكتابة أو التخطيط منه إلى الحرف الذي رسمته الخطوط العريضة له، هذا هو جوهر فن الشارع, التوقيع أو العلامة أو "التاغ"، هناك إتقان للخط وسرعة التنفيذ و الايماءة ، يتم أحيانًا إعادة إنتاج الاسم عديد المرات، إما مباشرة على الحائط، أو من خلال التدرب على الورق ثم يتم ملء الأوراق بقطعة تذكرنا الكتابة المتكررة بلا كلل بالعقوبات التي فرضها علينا المعلم."[6] تمثل هذه العلامة "التاغ" علامة خاصة "أثراً قاطعاً"[7]، وهي اسم مستعار يتكون من عدة مقاطع لفظية، غالبا ما تبدو بلغة إنجليزية، وتتكون من الأحرف الأولى، التي تحدد الفرد أو المجموعة التي قامت بإنتاجها، "فهي كل أشكال النقش القديمة والمعاصرة المتروكة في الفضاء الحضري على الجدران وتستخدم كعلامة للاعتراف بفرد أو مجموعة"[8]. ويجب أن تكون مشوقة وغريبة خاصة في طريقة الكتابة (انظر الملاحق: صورة عدد1)، واختيار أسلوب الكتابة، وكذلك يجب أن تكون مقتضبة ومختزلة، وغير مفهومة، وفي هذا يعتبرها كريستوف جينين أنها "توقيع مشفر أو رسم مميز موجز مرسوم بطريقة سريعة ومتكررة."[9] إذ يعمل كل فاعل على إنتاج علامة أكثر صعوبة في الفهم، أو في التخطيط دلالة على قدرته الخارقة حيث يتميز بالشعور بالغرابة الذي تثيره هذه العلامات المرئية من جهة وبحثه عن التفرد من جهة أخرى.

ويتخذ التفرد عدّة أشكال في ظاهرة العلامات والكتابة على الجدران. يجب عليه أولاً تطوير أسلوبه الخاص. حيث يقوم ممارس الغرافيتي بتجميع العلامات والتوقيعات لإتقان لغة رسومية" غرافيكية" معبرة بدرجة كافية. إذ لا يسعى إلى أن يكون المميز جماليا بقدر ما يسعى إلى إيجاد طريقه الخاص ومكانه ودوره داخل المجموعة ثم المجتمع. بل أكثر من ذلك، يبحث عن صوته، أسلوبه، علامة تقدير، مما يجعله يضمن أنه جلب انتباهنا وأننا نفكر فيه –كجمهور– على الفور عندما نرى رسوماته وعلامته الخاصة على الجدران. يؤكد أغلب المبحوثين عن الأسلوب الخاص بهم وفي هذا يقول زوس (zeus): "التاغ هي علامة خاصة بكل واحد فينا، لا يمكن أن تكون جماعية أو مقلدة، حتى لو كان بدايتها مستلهمة من إحدى العلامات المشهورة، إلاّ أنه بعد تكرارها على الأوراق ثم على الجدران سنخرج في النهاية بتاغ خاص بنا، يشبهنا، يعبر عنا وعن شخصيتنا، عن أسلوبي الخاص وطريقة تخطيطي وتلويني، كل واحد بيننا له أسلوبه الخاص، ألوانه الخاصة، الطريقة التي تميزه في الإمضاء والرسم. من الضروري أن أكون متفردا داخل المجموعة لأنه كل واحد من جهته يبحث عن التفرد والتميز داخل المجموعة حتى يضمن وجوده واستمراره."[10]

العلامة المميزة لها أسلوبها، والغرافيتي المميز له أسلوبه، والهدف لكل ممارس للغرافيتي هو الأسلوب. فهو يبحث عن التعبير من خلال علامته، صوته الغرافيكي. لأنه يترك أثرا عكس صوته الشفاهي الذي لا يترك ذلك[11]. تشير هذه العلامة إلى مسار حياتي لصاحبها، واهتماماته، ورغباته ويعرفها فرنسواز روبرت على أنها "وسيلة لتأكيد الذات وبناء مكانة من خلال علامة مسجلة في جميع اتجاهات المنطقة الحضرية الكبرى"[12] .لا يجب أن نقلل من اختيار الاسم والأسلوب، ففي هذا المسار تجري لعبة انزلاق كاملة، تجعله بشكل دائم في حالة ذهاب واياب بين الفرد وعلامته.[13]

من خلال كل جهوده للتميز، يتخلص المراهق من حضن العائلة تدريجيًا، مكررًا المرحلة الأولى من البناء الثلاثي لطقوس العبور التي حللها أرنولد فان جينيب(Arnold Van Gennep) [14]والتي تتكون حسب رأيه من ثلاث لحظات: الانفصال عن عالم الأم، فترة الهامش التي يجد فيها الفرد نفسه في نوع من غموض الهوية، وإعادة الاندماج في الواقع الاجتماعي بعد تحول هوية الذات.

خلال فترة الهامش، يسعى المراهق قبل كل شيء إلى بناء شخصيته من خلال الالتصاق بالهوية الأبوية ممارسة وضع العلامات تقدم للشباب وسيلة لتأكيد اختلافهم.

إلاّ أنّه يبقى الإمضاء أو التوقيع هو علامة الدخول للعالم الفني ورموزه المشفرة والمسننة وعوالمه الخفية، هي بالنسبة لهم ماركات فنية وعلامات تجارية عادة ما يحاولون تسويقها حتى تأخذ المنحى العالمي. فالعلامة أو الإمضاء هي نشاط يتطور في سياق التواصل الاجتماعي. حيث تمثل من جهة ممارسة يتم من خلالها التعبير عن الرغبة في الخروج من الفضاء الخاص، فضاء الأسرة، إلى الشارع الفضاء العام "لبناء هوية فردية. "[15] وهي في ذات الوقت تمهد بالدخول إلى عالم البالغين وتسمح لهم بفهم ديناميكية هذا التحول وبالتالي فهي بمثابة طقوس العبور إلى عالم البالغين.

2. اللغة:

تمثل اللغة العنصر الأكثر انعكاسا لحيوية الثقافة مثل العناصر الثقافية الأخرى فهي "تطور الشعور بالانتماء والهوية الجماعية والاعتراف وإمكانية التواصل مع تأكيد الذات وحمايتها."[16]

تُعدُّ لغة الغرافيتي ثرية جدّا ولها قدرة كبيرة على التكيف والتطور من خلال تحرير لغتهم من قيود القواعد اللغوية والاجتماعية وفتحها على إمكانيات غير محدودة للإبداع، رغم أنها ليست متجانسة إلاّ أنّها انعكاس لتنوع السياقات الاجتماعية والثقافية في المجتمع. يعتبرها في هذا الصدد بزين (Bazin) ، في كتابه ثقافة الهيب هوب "أن اللغة تتبع أحيانًا حقلا ثقافيا أكثر دقة من ذلك شبكة أو منطقة."[17] وتعود هنا لغة الغرافيتي دائماً إلى مخزونها اللغوي الأمريكي أي إرثها الثقافي، إذ نجد عديد من الكلمات باللغة الانجليزية، التي قاموا بإدخالها للهجة المحلية من خلال النطق المحلي، ومن خلال مشاركتنا الميدانية ، ومواكبتنا لأحاديث المجموعات وتفاعلاتهم، ولولا هذه التقنية لما تتميز به من أهمية في التعمق والتدقيق فيما يقال لما استطعنا أن نفهم هذه العبارات من ذلك "نشلوا" وهي مقتبسة من اللغة الأنجليزية من أصل كلمة « to chill»، وتعني في معجم الغرافيتي أنَّ "تغيّر المكان" ، أي الذهاب لمكان آخر فيه مساحة للغرافيتي، تغير "ديكور" المدينة."[18] أيضا كلمة "كرو" من أصل كلمة Crew باللغة الأنجليزية، وتعني المجموعة وكذلك كلمة "موفما" والتي تعني الحركة وهي مستلهمة من حركة الزولو في الولايات المتحدة الأمريكية.[19]

من خلال ما لاحظناه ومن خلال مقابلاتنا مع المبحوثين، والتركيز على لغة هؤلاء المراهقين، استنتجنا أن هذه اللغة هي أسلوب تعبيري خصوصي ينتمي بدوره إلى أسلوب فني ثقافي عالمي، ينتمي لسجل ثقافة الهيب هوب أكثر من كونه محلياً محددا. إضافة إلى استعمال العنف اللفظي في بعض كتاباتهم، خاصة على جدران المؤسسات العمومية خاصة المعاهد، ويعتبر ذلك فعلا تعبيريا، عن رفض للممارسات المسلطة عليهم. وأيضا تعريفا بهويتهم التي يعتبرونها مختلفة عن الهوية الجماعية، فتمثل بالتالي هذه اللغة، لغة مهمشة عن فئة مهمشة، اختارت العنف اللفظي لإبراز ذاتها داخل الفضاء العمومي ولافتكاك مكانتها فيه.

3. الأدوات الفنية:

يعمل المراهق الممارس للغرافيتي، على إتقان أدواته وتنظيم ألوان البخاخات بطريقة هادفة ووفقا لحركاتهم. بالنسبة لهم يتعلق الأمر بالجمع بين التقنية والجرأة، تعدُّ علبة الرش أو البخاخة هي الأداة الرئيسية التي يستخدمها هؤلاء الشباب والتي تمثل رأس مال ماديا ورمزيا بالنسبة لهم. إذ يحوم عالم الغرافيتي حول هذه الأخيرة، كما تترجم مجموعة من القيم التي يقوم عليها هذا الفن الحضري، وتجسد كرم "القيم المشتركة المتفق عليها من قبل أعضاء المجموعة."[20] فهي تمثل الرابط الهيكلي بينهم." فالرمز مشحون بقيم تعبيرية تحددها العلاقات التي تربط الفاعلين تجاهه."[21] فهو يمثل بالتالي القيم المشتركة، إذ يشتمل الرمز على نظام علامات منظم يمكن أن تتعارض حوله القراءات إلاّ أنّ معناه لا لبس فيه.

من خلال تكرار الإمضاءات أو العلامات ورسومات الغرافيتي تتوضح لنا علاقة هؤلاء المراهقين بهذه البخاخات فهي التي تشهد على مستوى إتقانهم ومهاراتهم التقنية. حيث كانوا قادرين على وصف المكان الذي اختاروه من خلال هذه البخاخة "فالمتميز وذو الخبرة في الغرافيتي، ليس من خلال تعقيد الصورة فقط ولكن أيضا من خلال إتقان الخطوط أو الخطوط العريضة التي ينجزها دون أي أداة أخرى غير البخاخة (دون فرشاة أو مسطرة...)."[22]

عادة ما يضع هؤلاء المراهقون على صفحات التواصل الاجتماعي الخاصة بهم صورهم والبخاخة بأيدهم (انظر الملاحق: الصورة عدد2)، أو كذلك أعمالهم وبجانبها البخاخات باختلاف ألوانها، كذلك أصابعهم المتسخة ببقايا البخاخ، وبقايا الألوان، والذين أغلبهم اعتبروه أنه محدد لهويتهم مثل "بطاقة العبور" للعالم الخارجي، وعملية إشهار لهم. وفي هذا تقول سندا حول أدواتهم الفنية: "إنّ هذه الأدوات هي المعرف الوحيد بالنسبة لنا مثل الفلاح وأدواته والنجار أو أي صانع اخر له أدواته التي تعبر عنه والتي تنتمي إليه وينتمي إليها نحن نَعرف بهذه الأدوات وتعرف بنا، مصدر فخر بالنسبة لي وأنا أتفنن بالبخاخة أو حتى علب الدهن يراودني الإحساس بالمتعة والسعادة"[23]. وهو ما يبين لنا التمثلات التي يحملها هؤلاء الفاعلون على البخاخة وأهميتها، إذ تمثل لهم حقيقة انتمائهم لعالم الغرافيتي، وتعبر عن هويتهم الفردية وهويتهم الجماعية التي من خلالها يحددون انتماءهم، ويفتكون الاعتراف أمام المجموعة.

كما تعبر هذه الأدوات المستعملة في الخربشات أو العلامات المسننة عن وضع اجتماعي معاش، وتُفهم أيضًا على أنَّها طريقة لاستكشاف المناطق و"حوزتها" كما تجعل من هذه العلامات مطابقة لكل محامل الشارع من أعمدة، أو جدران، أو لافتات، أو أبواب محلات سواء أكانت هذه المحامل صغيرة أو كبيرة، شاسعة أو ضيقة ظاهرة أو خفية. غالبًا ما تبدأ العلامة في تحديد الأماكن المحيطة بالفاعل (منزل، مدرسة، منزل مهجور في الحومة....)، هذا ما نجده خاصة مع مجموعة المراهقين المنتمين إلى فرق رياضية متنافسة من أجل "حوز" الفضاء. وعليه فإن هذه الادوات بالنسبة للمراهقين من ناحية أخرى عبارة عن وسيط ناقل لرسالة بينهم والجمهور، إذ يعمل على التعبير عن نفسه من خلالها، وإظهار وجوده، وتمثيل نفسه، أو تمثيل مجموعته، وترك أثر على مروره من هناك، وبصمة عن وجوده.

II. الشارع والمراهق

لا يمكن التفكير في الغرافيتي بأن يكون موضوعاً للبحث، دون أن يتم البحث في كيفية انتشارها، في وسط شوارع المدينة، أين يتم نشر هذا الأثر؟ بأي منطق؟ ما الذي يحفز فنانو الغرافيتي على جذب وسائل اعلام الشارع هذه؟ مثل الجدران، ووسائل النقل العام، وجميع أشكال البنية التحتية، وإن كان الجدار بامتياز هو المحمل المميز للتعبير غير القانوني حسب الفصل 304 من القسم السابع في المجلة الجزائية بعنوان " في الاضرار على اختلاف أنواعه بملك الغير."[24] وغير الشرعي من الكتابة إلى الامضاءات، ومن كتابات إلى رسومات، باستغلال مختلف الامكانيات والخصوصيات والأدوات المتنوعة، والدوافع وراء هذا الفعل "التخريبي" بالنسبة للبعض، و"الفني" بالنسبة للبعض الآخر، إلاّ أنّ تعدد المحامل الأخرى وتنوعها يكون حسب أهميتها، ومدى قدرتها على التواصل مع الجمهور.

1- الشارع فضاء عبور المراهق:

أن تكون مراهقا، يعني أن تضع شخصيتك في "الواجهة"، لذلك فكل مراهق في الحقيقة في حاجة إلى فضاء وجمهور، حيث سيكون الفضاء العام، والمدينة، وخاصة الشارع جميع الفضاءات الوسيطة، التي تضمن وظيفة المرور بين الداخل والخارج، ستكون هدفا "لممارسات متزامنة تسمح للأفراد بالهروب بشكل متقطع من الشبكة الوظيفية... هذه الممارسات غير الشرعية تعمل في بعض الحالات وبطريقة أو بأخرى على تخريب الاستخدام الموصوف للفضاءات من خلال بعض اللمسات الصغيرة."[25] مما يجعل من الشارع مصدر جذب كبير للمراهقين.

الشارع هو المكان الذي يمكن رؤية المراهقين وسماعهم فيه بامتياز. في كثير من الأحيان، في مجموعات، يَعبر المراهقون الشارع بطريقة صاخبة ومرهقة، سواء أكان ذلك من خلال الضوضاء (الأصوات العالية، الدراجات النارية، الدراجات الهوائية) أو من خلال الملابس والمظهر الخارجي، التي تظهر اهتمامًا دائمًا باختلافهم عن البالغين، أو حتى لصدمتهم قصدا، لا يمر المراهقون دون أن يلاحظهم أحد في الفضاء الحضري، فهم يتجمعون في مجموعات، وكثيرًا ما يجبرون البالغين إلى الالتفات لهم وتتبعهم حتى بأعينهم، فهم يفرضون وجودهم واحترامهم أيضا.

هذا العبور الصاخب هو في الواقع يعبر عن نمط عيش أو أسلوب العيش، فهو مقصد في حدّ ذاته إذ يعطي الأولوية للمظهر الخارجي، ويمثل اللباس انعكاسه الأول إلاّ أنّ في ثقافة الهيب هوب هنالك "علاقة تبادلية بين المظهر والمضمون فكلاهما يكمل الآخر"[26]، من هذا المنطلق كان المظهر الخارجي للمبحوثين يثير الانتباه دون التفطن لذلك من حيث نوعية اللباس خاصة والتي تتوافق أيضاً مع متطلبات التعبير المعتمد.

منذ بداية بحثنا الميداني الأول خلال دراسة الدكتوراه كنّا نلاحظ هؤلاء الشباب ومظهرهم الخارجي في الشارع الذي يميزهم، ألوانهم، أزياءهم الفضفاضة، والشعر الطويل، والمجعد في كثيرٍ من الأحيان، أو الضفائر الطويلة في حالات أخرى، لم نعتقد حقيقة أنَّها قصدية معبرة، لكن عندما تقربنا من المبحوثين أكثر، وكانت ممارساتهم تثير الحيرة، أردنا أن يكون ذلك فرعاً أساسياً في دليل الملاحظة وفي المقابلات. وكان أكثر في هذا البحث مع المراهقين حيث وجدنا أنَّ الجسد أيضاً أو المظهر الخارجي وسيلة للتعبير عن الذات والتواصل في الفضاء الخارجي، انطلاقاً من الاقتناع بأن الانتماء والالتزام يكون أيضاً مسألة تتعلق بالموضة، في هذا يقول عزيز" أنا أعبر عن اختلافي معكم من خلال مظهري الخارجي ،طريقة لبسي وشعري وهذه العجلة التي أتنقل عليها تميزني بين كل المارة في الشارع ، تجلب لي الانتباه ، أثير الحيرة أو حتى الاشمئزاز ، المهم أنني مختلف."[27] فأن تكون خارج السلوك المعياري للمجتمع هو شكل من أشكال الوجود، "يعني أنني موجود بينكم أثير الانتباه"، هذا ما قاله أحد المبحوثين أيضا في حديثه. ومن هنا يصبح الشارع فضاء للعبور بين الأزقة والأماكن وفضاء للعبور بين الذوات والهويات وبين الأجيال أيضا.

من خلال هذه الممارسات يساهم المراهق في بناء ذاته، حسب علاقته الخاصة بالفضاء الخارجي، ووجوده مع الآخر، وهذا بدوره يعيدنا إلى عصر العولمة، وتأثيره على فئة المراهقين، وظهور الثقافات الصاعدة، أو ثقافة الشارع التي اتخذت بعداً كونياً، بحكم تأثير الفضائيات، ونمو سوق الصناعات الثقافية، هذه الثقافة هي سعي للتأقلم مع مشكلات العالم المعاصر... والتي لها ميزاتها من أساليب التصرف واللغة واللباس والتفكير".[28]

فالشارع هو مساحة انتقالية تمثل نقطة التقاطع بين الفضاءات الخاصة في الداخل، والمألوف والخارج، والعامة والأجنبية. وعلى هذا النحو، فهو يفلت جزئيًا من الأساليب الأكثر مباشرة للسيطرة الاجتماعية. إنه رابط للأحداث الصغيرة، واكتشاف الأشخاص والأشياء. إنه مسرح إذ هناك دائمًا شيء ما يحدث، إنه مشهد فرجوي لا نهاية له. وبالتالي، ولأنه مساحة انتقال بين المنزل والعالم، فإن الشارع بالنسبة للمراهقين، هو نقطة انطلاق العالم... وهو أيضًا عند علماء النفس استعارة للفضاء النفسي، المشهد الذي يعيش فيه المراهق ويعرض فيه أحلامه وأوهامه وصراعاته الداخلية.

2- الشارع فضاء التحرر

ارتبط ظهور الغرافيتي في المدينة التونسية بالتغيرات التي طرأت عليها من الناحيتين المعمارية والتنظيمية، إذ يبدو متكيفاً بشكل خاص مع المنطق الذي يحرك المراكز الحضرية، ولئن عُدَّ الغرافيتي تجاوزاً لحدود الزمان والمكان وتحررا منها، من حيث المساحة، إذ لا يخلو مكان دونما نشاهد إمضاء أو كتابة أو رسومات ضخمة (انظر الملاحق: صورة عدد3)، سواء أكان ذلك في الشوارع

الرئيسة أو في المراكز التجارية والشوارع المتاخمة في الضواحي، لتصل في بعض الأحيان إلى أسطح المباني. فلا نكاد نتجاوز جداراً أو باب محل أو عموداً كهربائياً أو أعمدة اسمنتية أو حتى إشارات المرور وسائل النقل (ميترو –حافلة..) دون مبالية بالفضاءات الخاصة أو العامة أو مناطق راقية أو مهمشة إلا وتجد إمضاءات هؤلاء العابرين أثراً لمرورهم من هناك.

إنَّ الإمضاء على الحافلة أو الميترو يعدُّ سمة من سمات هذه الممارسة سواء أكان من حيث المكان أو الزمان، حيث يضمن المراهق هنا أنَّ إمضاءه سيتنقل بين شوارع المدينة، وسيكون تحت ناظري جمهور محتمل غير محدود، لذلك فهي إضافة، إلى أنها "حوز للمكان" فإن هؤلاء المراهقين لا يطالبون بمكان يمارسون فيه نشاطهم، بل يحتلونه، في عبورهم وهذه سمة من السمات الأساسية للغرافيتي، فهو شخص عابر لا يطالب بحق الملكية، بل يحتل المكان مادياً للحظات "زمن الفعل"، ليحتله بعد ذلك رمزياً من خلال ما ترك من أثر تحت اسم مجهول لزمن مجهول، يمتد بامتداد هذا الأثر على حامله.

ليستثمر هؤلاء المراهقون أجسادهم ومظهرهم الخارجي، حتى طريقة المشي، وأسلوب الحديث، لاحتلال هذه الأماكن وتحريرها من سلطة الخوف من الرقابة، وهو في الحقيقة تعبير عن التحرر وتحدٍ للمجتمع، ونضال للاعتراف بالحرية الفردية، وانتزاع الاستقلالية الفردية، ورفض لأسلوب الحياة المعياري السائد، الذي يمليه المجتمع بالانتقال من جيل إلى آخر، فهم بالتالي يرغبون في التمييز والاختلاف ولو رمزياً. إن استعراض المظهر الخارجي هو رغبة في التحرر والانعتاق من كل السلط المفروضة من ناحية، ورغبة في تغيير التعريف الشخصي للذات من ناحية أخرى، ووسيلة لإبراز الذات، والتأكيد على وجودها، أمام نفسها، وأمام الآخرين. تتنقل هذه الذات المراهقة في شوارع المدينة، الفضاء الوحيد الذي يمكن أن يبدو للهؤلاء الفاعلين حرًا، متحررًا من القيود المؤسسية التي تشعرهم بأنها مستمرة وضاغطة بشكل خاص خلال فترة المراهقة.

فهو بالتالي بحث عن الاعتراف الذاتي واعتراف الآخر، بما أنَّ الجسد والمظهر الخارجي هو العلاقة الأولى بالمجتمع فهو، "يسمح للجسد بالوصول إلى العالم وإلى الآخر، انه عنصر انتروبولوجي لفهم الإنسان باعتباره أساسيا مثل الحالة والشخصية."[29] "لذلك فإنّ الجسد هو عنصر ذو أهمية قصوى، للمنهج الثقافي للإنسان، لأنَّ صورة الثقافة وصورة الجسد مترابطتان، لا تنفصلان في كل المجتمعات، وفي جميع المعطيات التاريخية "[30].

في ظل السياق المابعد حداثي، يتميز الفرد حسب أولفييه بوبينو (Olivier Bobineau) "بثماني تحولات بعلاقة بذاته وبجسده وبالآخر وبالأشياء وبالوقت وبالفضاء وبالقيم وبالأفكار للخلاص والتعالي... في هذا السياق فإنَّ الفرد من خلال تحرره يصوغ معياراً، يبني منه هويته ويطورها، إذ يختار أسلوب حياة، يحدد علاقته بالآخرين وعلاقته بنفسه"[31] إنَّ تراجع دور غياب الرقابة الاجتماعية، ورغبة المراهقين من التحرر من الأعراف وأنماط السلوك المنقولة عبر مؤسسات التنشئة الاجتماعية والانفتاح الثقافي، تعطي لهؤلاء المراهقين الحرية لاختيار نمط عيش، يعبّر عن ذواتهم داخل المجتمع، ونمط عيش بديل، يسمح لهم بإنتاج أسلوب حياتهم، بعيدًا عن الرقابة العائلية، وكشكل من أشكال مقاومة الرفض والاقصاء، وبحثاً عن الاعتراف داخل مجتمع دائماً ما يبحث عن التجانس. فالشارع المكان المناسب للتعبير عن اليتوبيا الاجتماعية والثقافية، فإنَّ التغيرات التي شهدها الشارع التونسي والتحول العميق الذي طرأ عليه من خلال هذه الممارسة وهؤلاء الفاعلين، حوَّله إلى فضاء تحرر، ليتحول بذلك إلى ثورة سيميائية ونص عميق، و"فاعل متحرر".

3- الشارع فضاء حميمي:

الشارع فضاء عام يتعارض مع الفضاء الخاص، ومكان الملكية هو فضاء عبور وليس امتلاك أو تجذر يتجاوز هنا الشارع مفهومه اللغوي، الذي يقتصر على "الطريق" أو "المسلك" أو "الدرب" إلى أنَّه مجموع من التفاعلات الأكثر صلة بالبنى الاجتماعية، ليتحول بذلك

إلى مصطلح عميق وإشكالي في الوقت نفسه، مما يتفق مع أن "الشارع نص، يمكن كشف بنائه الداخلي ووصفه من حيث هو وحدة مترابطة ومستقلة، اعتمادا على الكلمة واللغة واللون والصورة والحجم والأشكال الممارسة، وكل ما يكون بناء فنيا لهذا النص"[32] هكذا اعتبره الأستاذ محسن البوعزيزي.اذ يرتبط بالسياقات والوضعيات الاجتماعية والمتغيرات الزمنية والتراكمات الاجتماعية، فهو "قابل للقراءة باعتباره نظاما لعلامات تحملها التسميات والاشارات المختلفة مثلما يمكن قراءة لغة الجماعة لا في أبعادها الأدبية اللسانية فقط وإنما أيضا في أبعادها الاجتماعية النفسية بحكم أن هذه اللغة هي شكل من أشكال الوعي الجماعي للمجموعة بعينها"[33] هو جزء من حياتنا اليومية، التي نعيشها ونمارسها كل يوم، وبالتالي فهو في علاقة وطيدة باليومي، يتأثر ويؤثر فيه فالشارع إذاً فهو "نقطة تقاطع وتنقل بين الفضاء الخاص والفضاء العام بين الداخل والخارج"[34]

أما المؤرخ أرياس فقد رأى أنَّ الشارع – إلى حدود القرن التاسع عشر بالنسبة إلى الطبقات البرجوازية– "مصدر للخطر والتلوث المادي والاخلاقي والانحراف" [35] وتأكيداً لذلك في دراسة حول العلاقة بين الشباب والمدينة في فرنسا رأى كوركوف" أنَّه لفترة طويلة كانت العلاقة بين الشباب والمدينة قائمة على تصور الخطورة الاجتماعية للشارع "[36]، في هذا الإطار كيف يمكن أن نعدَّ الشارع مجالاً اجتماعياً، ومحدداً اجتماعياً ضمن عملية التنشئة؟ في الوقت الذي يعدُّه الجميع مصدر خطر المتاح في كل وقت.

فأمام واقع متأزم تميز بالإقصاء والتمييز، يبحث هؤلاء المراهقون عن مرجعية جماعية لتخفيف وطأة الإحساس بالحرمان أمام وضعياتهم وإحساسهم بالأمان، والتي أطلق عليها مافيزولي تسمية "القبيلة" أو القبيلة الجديدة" "[37]، فالشارع اذاً مصدر الإحساس بالانتماء، وبناء العلاقات والمغامرات الجماعية والتجارب الإبداعية، وتبادل المعارف والخبرات. في نفس السياق يجمع بين هذه القبيلة سجّل لغوي يربط فيما بينهم ويعطي خصوصية لفاعليها يعبر عن رابط الانتماء فيما بينهم. كثيراً ما يستعملون كلمة "الخو" أو "Brother"، وهي تعني الأخوة في هذا الصدد أطلق "بازين Bazin" على نظام العلاقات داخل حركة الهيب هوب بالعلاقات العائلية، والتي تقوم على الروابط التضامنية والعاطفية. "نحن عائلة" هكذا يبدأ أغلبية المستجوبين حديثهم عندما نتحدث عن الرابطة العلائقية وفي نفس السياق تقول سندا: "نحن أكثر من الأصدقاء هم عائلتي، جمعنا الغرافيتي والشارع، جمعتنا ثقافة كاملة ... نجتمعوا يوميا تقريبا نتجولوا في الشوارع ، نرسموا على الجدران ونرقص ونستمعوا إلى موسيقانا المفضلة و نأكلوا مع بعض، نتضامنوا مع بعض في أوقات المحن."[38] هذا يوضح العلاقة الحميمية التي تربط بين أطراف المجموعة، وأسلوب العيش الذي اختاروه، الذي يحمل حياة الشارع التي لا تتقيد بقواعد أو منطق العيش داخل العائلة أو المدرسة، بل ينتجون من خلال تجمعهم بديلاً للعائلة تحت تسمية "العائلة" في هذا يرى أيضا Bazin بيزن أنّ " العائلة أيضاً يمكن أن تأخذ معنى "القبيلة" إذا كانت القبيلة تشترك مع العائلة في طريقة للعيش معاً، فإنها تكتسب صفة رمزية...، أحيانا تحمل أسطورة أو قصة معينة تشكل محيط المجموعة"[39]. الغرافيتي والشارع هما القاسم المشترك بين هذه المجموعات، وهو الذي يجمع فيما بينهم ويثري علاقتهم، وعليه تبنى ديناميكية المجموعة، حواراتهم تفاعلاتهم التي تدور حول الغرافيتي وفي الشارع. وعليه فالشارع مجموع من الفضاءات العاطفية الحيوية بمجموع القبائل المختلفة الهويات، إذ الشارع حسب لوشيني (Lucchini Riccardo) متناقض، لأنه يخفي كل من الجوانب الايجابية (مكان المغامرة – مصادر الدخل...) والقيود السلبية (عنف واستغلال)، والنتيجة هي تناوب مستمر للأضداد بين اليأس والأمل والخضوع والحرية التي تنتج نفس القدر من المعاناة والملذات"[40].

في هذا الإطار وفي إطار العلاقة بين المراهقين والشارع كفضاء يتحركون فيه، يمارسون فيه نشاطاتهم، ويبنون فيه مسار حياتهم وتجاربهم الخاصة، يمكننا أن نستمد قراءتنا من الدراسات التي تعدُّ الشارع فضاءً اجتماعياً يستمد جوهره من المارة وتفاعلهم، الذين يتأثر بهم، ويؤثر فيهم، يحدد حركتهم وتفاعلهم. وعليه فإننا نتفق مع آلان فيلبو الذي يرى أنَّ الشارع "فضاء حميمي منتج للروابط الاجتماعية"[41]، وبالتالي فهو فضاء عبور، وحركة دائمة، وتواصل، وانعكاس للعلاقات الاجتماعية داخل المدينة، أين يُخلق الجمهور،

وبالتالي فهو مسرحٌ يمكن أن يكون مسرحاً للعروض الفنية والمسرحية، كما يمكن أن يكون مسرحاً للصراعات والتنازعات، فهو بما يحمل من تناقضات، فضاء مثير وجذاب، يغري للفهم والاستكشاف، مصدر للشعور بالأمن والخطر، باعتباره مسلك الاختلاط بالغرباء، وهو المكان الذي تتكثف فيه الانفعالات اليومية، والنزاعات الجماعية، ليتحول إلى مكان مخيف يداهمه خطر العصابات والحوادث،" الشارع المتوحش".

وبالتالي ومن خلال ما تقدم فإن التماسك الداخلي للمجموعة التي ينتمي إليها الفرد، تضفي عليه الشعور بالانتماء وبالحصانة شعوراً بالأمان فالتجارب الجماعية تضفي إحساساً بالانتماء إلى كيان اجتماعي محدد ومميز في هذا "يحتاج الفاعلون في الحياة الاجتماعية إلى بناء فئات بسيطة ومتماسكة قدر الإمكان لتنظيم رؤيتهم للعالم وتحديد أساليب العمل"[42]. حيث توفر هذه السلوكيات مساحة للانتقال والتفاوض، تسمح بإقامة علاقات جديدة مع الذات، ومع الآخرين. ومن هنا نستخلص مما قدمنا أن هذه المجموعات عموما في فترة عمرية تتوافق مع ضرورة الشاب وحاجتهم إلى ترك نظام الأسرة والسعي خارجا لتلبية احتياجاته من أجل التماهي والانتماء ولتقوية شخصيته والتعبير عن رغبته في الاستقلال حيث يبحث هؤلاء المراهقون عن أدوار جديدة بناء على قبولهم وتبنيهم من قبل أشخاص من خارج المجموعة العائلية وستوفر مجموعات الشارع باختلافها إطارا لتجاربهم الجديدة، في هذا السياق تسمح ممارسة الغرافيتي داخل المجموعة باكتشاف التنوع واختباره. وتعلن بدورها عن رغبة في العيش المشترك، والذي تبحث عنه هذه المجموعات بقبائلهم بمشاركتهم، لشغفهم مع الآخر- الجمهور- المارة، والتي تعبّر بدورها عن حيوية عاطفية مجسدة في مجموعة من الممارسات...عواطف شاملة لكل المجال الاجتماعي. هذه العواطف التي تنشئ روابط وعلاقات، تتجمع في إطار قبلي حول ذوق مشترك، يجمعهم الشغف الذي يعيشونه مع الآخرين. هذه المجموعات الصغرى تجمع تفاهمات عميقة، تتجسد في سلسلة من التمظهرات والتجليات، بنية تكشف عن ذاتها بطريقة لا متناهية بأحشاء الحياة اليومية وأنسجتها، إلى أن تنتصب في رحم الاجتماعي.

إن العالم الاجتماعي هو نتيجة لعملية التفاعل وانعكاس بين مختلف العناصر، يبني الفرد تاريخه من خلال قدرته على الابتكار والإبداع من خلال التفاعلات الاجتماعية والثقافية والتواصل بين العمليات المختلفة، لإنشاء أنماط الحياة الموجودة في المدن الكبرى، ومن هنا يستحوذ الفاعلون على الفضاء، وهو ما يحول عن طريق التواصل هندسة المدينة وانتاج "أماكن التواصل" الأماكن التي يسوغ فيها الفاعل مشاعر الشراكة، والتي تعطي معنى لكل مجموعة، هذه المجموعات تمثل طريقة تفاعلهم، احتفالاتهم، طقوسهم، مشاعر مشتركة. وتحليل هذه التفاعلات بدوره يسمح لنا بفهم المجموعات بشكل مختلف، وعليه يضعنا أمام قراءة جديدة للشارع ، ليس كبعد مادي فقط، بما يحمله من معمار وسكان، وما تخصه من تهيئة وهندسة ، والتي يسهل ملاحظتها ودراستها وتكميمها ووصفها، بل تتعدى ذلك لتصبح إضافة إلى فضاء جغرافي، هو واقع اجتماعي، وجود، وقائع يومية، تحركات، وتفاعلات، مجموعة من الروابط الاجتماعية، التي تجمع الأشخاص داخل الفضاء، والتي يصعب فهمها، والإحاطة بها، فالحياة الاجتماعية بضجيجها وتناقضاتها، وبما تخفيه ولا تعلن عنه الشوارع، وما تحمله من خفايا كامنة "فما يستعصي هو الإحاطة بأجواء الشوارع والأحداث اليومية وواقع الإنسان داخل المحيط الحضري"[43]

الخاتمة

يصل بنا هذا البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تتبلور في قسمين اثنين يتمثل الأول في:

إنّ الغرافيتي نظام مبني، طقوسي وهو نظام يتقاسمه المراهقون بما يحمل من معنى وصيرورة. يتشكل من خلال جملة من القيم والمبادئ التي تمثل بدورها نمط عيش وحالة ذهنية يؤسس من خلالها الفاعلون عالمهم الاجتماعي. ممارسة الغرافيتي بما هي ثقافة تعبر عن عبورهم من الفضاء الخاص إلى الفضاء العمومي ليكون محملا لثقافة تحمل مشروعا آخر يتأسس وفق الانتماء إلى ثقافة "الهيب هوب" بوصفها ثقافة كونية. وبالتالي فهي بمثابة طقوس العبور إلى عالم البالغين وتسمح لهم بفهم ديناميكيته هذه الممارسات أيضا، بما هي مرتبطة بأسلوب عيش فهي مرتبطة بالمظهر الخارجي، سيتحول بدوره إلى شكل من أشكال المقاومة والبحث عن الاعتراف لتأكيد أسلوب حياة مختلف، بعيدا عن التعسف الاجتماعي والثقافي، يعكس بناء الهوية الشخصية والشعور بالانتماء، ليصبح بذلك المظهر الخارجي كما الجدران مجالات للتعبير عن الذات داخل مجتمع يأبى الاختلاف.

ومع ذلك يعيد المراهق إنتاج روابط اجتماعية بديلة تعبّر بدورها عن الرغبة في القطع مع العالم الخاص والتعبير عن الخروج إلى عالم الشارع. يبحث عن التشابه من خلال الانتماء داخل المجموعة حيث توضع "الأنا" تحت اختبار التعرف على الآخر ضمن المجموعة، وإثبات أنه جزء منها، من خلال مشاركتهم طقوس الانتماء المفصّلة، والتعبير عن "العيش المشترك" والحصول على الاعتراف الاجتماعي، وذلك من خلال نسج شبكة علائقية عن طريق ممارسة الغرافيتي. حيث يتحول الشارع بذلك بالنسبة إلى هؤلاء الفاعلين فضاء للتنشئة الاجتماعية يُعاد فيه إنتاج الروابط الاجتماعية والعلاقات التفاعلية التي ينتج ضمنها هؤلاء الشباب هويتهم المتفردة.

والثاني وهو نتيجة للأول: اذ يجد المراهق في الشارع فضاء انعتاق وتحرر من سلطة القواعد الاجتماعية ورقابتها، فإنه أضحى البديل عن القطيعة بينه وبين عالمه الداخلي. حيث يعاد تعريف التنشئة الاجتماعية ليس بوصفها معطى جوهريا وخارجا عن الأفراد بل كصيرورة علائقية وتفاعلية مستمرة بالمعنى الذي تعطى فيه مكانة للفاعل الاجتماعي من خلال قدرته في الوقت نفسه على فهم المعنى الاجتماعي لأفعاله وقبول التعريفات الاجتماعية التي يفرضها عليها الآخرون. فإن الشارع يتحول بذلك بالنسبة لهؤلاء الفاعلين فضاء للتنشئة الاجتماعية تعاد فيه انتاج الروابط الاجتماعية والعلاقات التفاعلية التي ينتج ضمنها هؤلاء المراهقون هويتهم المتفردة.

وبالتالي فإنَّ الشارع يصبح فضاء تفاعليا يعبّر من خلاله المراهق عن رفضه للمؤسسات التقليدية، وفضاء عبور وتحرر سواء ظهوره او تفاعله مع الآخر المتقبل. تتطور هذه الممارسة في سياق التواصل الاجتماعي. يتفق ذلك مع ما ذهبت إليه فرضيتنا والتي نصت على أن الغرافيتي عالم اجتماعي ينتج عبره المراهقون تعبيرات هوياتية ويعاد فيه تعريف الرابطة الاجتماعية في الشارع.

في هذا الصدد، تبقى علاقة المراهق بالمؤسسات الرسمية بداية من العائلة الى المؤسسات التربوية والثقافية قائما أساسا على القطيعة ، عجزت سياستها المتبعة عن جذب هذه الفئات .وتطرح فئة المراهقين تحديا أمام هذه المؤسسات لعجز برامجها أمام استقطاب المراهق الذي خير ثقافة الشارع وممارساتها وهو ما يستدعي اليوم إعادة التفكير مليا في سياسات الادماج وبرامجها من خلال مراجعتها ومحاولة تأطير هذه المجموعات ومشاركتها وادماجها ضمن نظمها ، عبر سياسات تتماشى مع السياق مع بعد حداثي والتقليص من الفجوات الثقافية بينها وبين المؤسسات .

قائمة الملاحق

الصورة عدد 1 [44]: تعبر هذه الصورة عن التشويق والغرابة الذي تحمله العلامة

الصورة عدد 2[45]: تعبر هذه المجموعة من الصور عن أهمية البخاخة والأدوات بصفة عامة بالنسبة للمراهقين

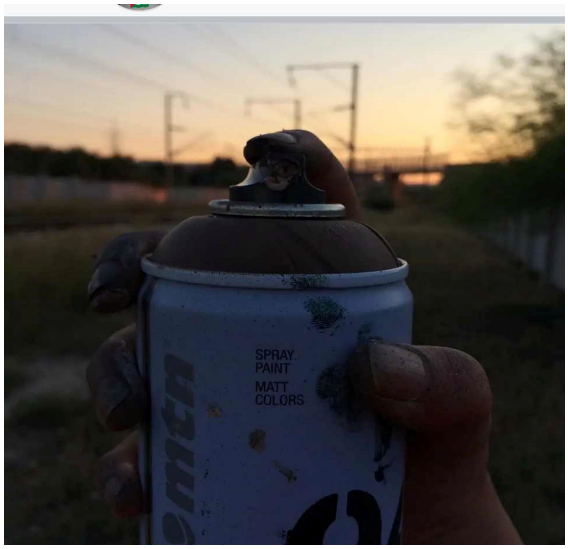

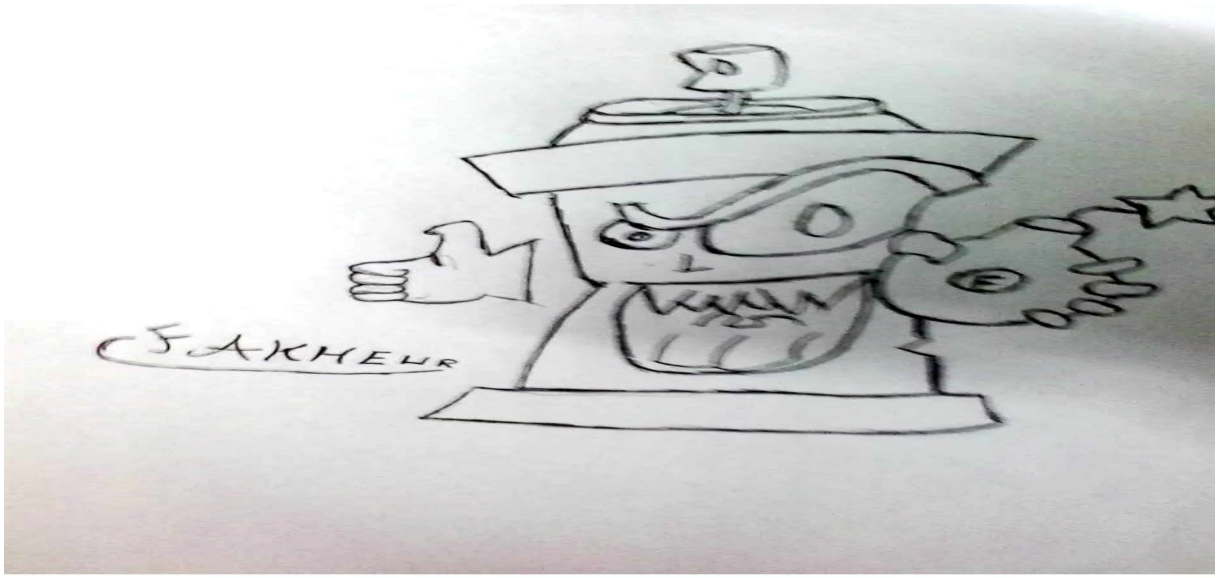

الصورة عدد 3 [46]: تعبر هذه الصور عن المحامل التي توجد عليها الامضاءات والرسومات

الهوامش:

[1]– هريشي (لمياء)، أطروحة دكتوراه، الممارسة التعبيرية الشبابية: الغرافيتي مثالا، تحت اشراف الأستاذ عبد الستار السحباني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 9أفريل تونس.

(2) -Calo (federico), Le monde du graff, Paris, l'harmattan, 2003

(3) Felloneau(Marie-Line) et Busquets (Stéphanie), Tags et grafs : les jeunes à la conquête de la ville, Paris, L'Harmattan,2001

4- ibid, P .132

5 Criseo (Clément) et Verlomme (Malou), Tag, paris .new york.sào paulo, alternative, 2013

(6), ibid, p.13

(7)Kokoref (Michel), Le Lisse et l'incisif. Les tags dans le métro, Paris, Institut de recherche et d'information socio-économique, 1990, p.2

(8) Genin (Christophe), Le street art au tournant. Reconnaissance d'un genre, Bruxelles, Éd. Les Impressions nouvelles, coll. Réflexions faites, 2013.

(9) ibid,

10 – العمل الميداني، مقابلة مع zeus، بتاريخ 10 -02-2023، بمقهى بتونس العاصمة.

11 St-Germain (philippe), des traces sur les murs : le graffiti comme rite de passage chez les jeunes in, codes,corps et rituels dans la culture de jeune, sous la direction de Denis jeffrey et jocelyn lachance ,presse de l'université laval 2012,. p 95

12 85, Robert L'argenton (Françoise), « Graffiti : tag et grafs », in communication et langages, №1990, pp59-71

13Felloneau (Marie-Line) et Busquets (Stéphanie), Tags et grafs, op.cit , p136

14 . St-Germain (philippe) , des traces sur les murs, op.cit, p96

15.Vulbeau (Alain), Vulbeau (Alain), Du tag au tag, Paris, Desclée de brouwer, 1992

16. Bazin (Hugues), La culture hip-hop, desclée de Brouwer, Paris, 1995 p.47

17 Ibid, p.41

(18)–البحث الميداني. من خلال الملاحظة بالمشاركة

19 – ظهرت ثقافة الهيب هوب أول الأمر في السبعينيات في منطقة برونكس في مدينة نيويورك على إثر مواجهات بين مجموعات متمردة من المهاجرين السود ورجال الأمن فقد فيها "**أفريكا بومباتا**" صديقه المقرب "**سولسكي**" الذي ينتمي إلى نفس المجموعة "Black Spades" على يد رجال الأمن في جانفي 1975(.فقرر بومباباتا إثر ذلك الخروج من المجموعة، ومواجهة وضعه المتردي، لينخرط في مجموعات فنية فكان من "الأوائل الذين استعملوا تقنية D.J'S"(19) وعُرف بإتقانه هذا الفن فحاول من خلاله إرساء قواعد أخلاقية، تناهض ممارسة العنف، وترتكز على الخلق والإبداع، ولذلك أسس حركة "Zulu Nation" (أمة الزولو)،التي استمدها من زعيم " الزولو" الذي قاوم الاستعمار الانقليزي، واستطاع توحيد قبائل جنوب إفريقيا، وفض النزاعات والصراعات الأثنية، وانطلق بومباتا من فكرة التوحيد، إذ عمل على توحيد الشباب باختلاف أصولهم وأجناسهم وألوانهم رفضاً لمنطق العنف والعصابات والتقسيمات المجالية والإثنية، التي انتشرت في المناطق الحضرية الأمريكية.

(20) Lévi-Strauss (Claude), Anthropologie structurale, Paris, Plon, 1958

(21) Bourdieu (Pierre), Sur le Pouvoir symbolique, Annales ESC, № ، 3, 1977, pp. 405-411

22 Bazin (Hugues), op.cit, p 170

[23] – العمل الميداني، مقابلة مع سندا، بتاريخ 25 /2023/01، مقهى بتونس العاصمة

[24] – المجلة الجزائية، الجمهورية التونسية، وزارة العدل وحقوق الانسان، طبعة محينة ومصادق عليها من طرف المجلس الوطني لتنظيم الاحكام التشريعية والتراتيب الجاري بها العمل وفقا للقانون عدد 46 لسنة 2005 المؤرخ في 6 جوان 2005 * حسب ما قدمته لنا المحامية أثناء مقابلتها.

[25] Fisher (G.N), psycologie de l'environnement social, PARIS, Dunod, 1997,p.68

[26]Bazin (Hugues), La culture hip-hop, Op.cit. p.122

[27] – البحث الميداني: مقابلة مع عزيز بتاريخ 02 /2023/03، أمام معهد باب الخضراء، تونس العاصمة

[28] الزيدي (منجي)، ثقافة الشارع دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب،مركز النشر الجامعي، تونس، 2007. ص 88

[29] Milon (Alain), Les inscription de la jeunesse, op.cit, p.93

[30] Ibid.

[31]- Bobineau (Olivier), Les formes élémentaires de l'engagement, une anthropologie du sens, Paris, Temps présent, 2010.

[32] البوعزيزي (محسن)، الشارع نصا. نحو قراءة سيميائية لبعض الشوارع التونسية، في الحياة الثقافية عدد 135، جويلية 2002 .

[33] بوعزيزي (محسن)، الشارع نصا: دراسة ميدانية في شوارع تونس العاصمة، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 1999-2000، ص 26

[34] Felonneau (Marie-line) et Busquets (Stephanie), Tags et grafs les jeunes à la conquete de la ville, op.cit, p 49

[35]Vulbeau (Alain), Du tag au tag…, Op. cit. p. 25.

[36] Kokoreff (Micheal), « Jeune et espaces urbains, bilan des recherches en France », 1977-1994, in sociologie et sociéte, vol1 p 159-176

[37] Mafisolli, Rue, « Esthetique, socialité », in la jeunesse et la rue, p25

[38] – العمل الميداني، مقابلة مع سندا، بتاريخ 25 /2023/01، مقهى بتونس العاصمة

[39] Bazin (Hugues), La culture hip-hop, Op.cit. p.102

[40] Lucchini (Riccardo), Enfant de la rue, identité, sociabilité, drogue, Genéve Librairie Droz S.A ,1993 p.32

[41]Vulbeau (Alain), Du tag au tag…, Op. cit. p.25

[42] Felonneau (Marie-line) et Busquets (Stephanie), Tags et grafs les jeunes à la conquete de la ville, op.cit, p.33

[43] Bevillard (Sandra), Comprendre les jeunes : rupture et émergence d'une nouvelle culture, Ed Petite Bibliotheque de la Citoyenneté, 1998, p50.

[44] – البحث الميداني

[45] – العمل الميداني

[46] – البحث الميداني